مركز دراسات الوحدة العربية

ربوع بلادي

٥

سلسلة كتب مصورة

لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

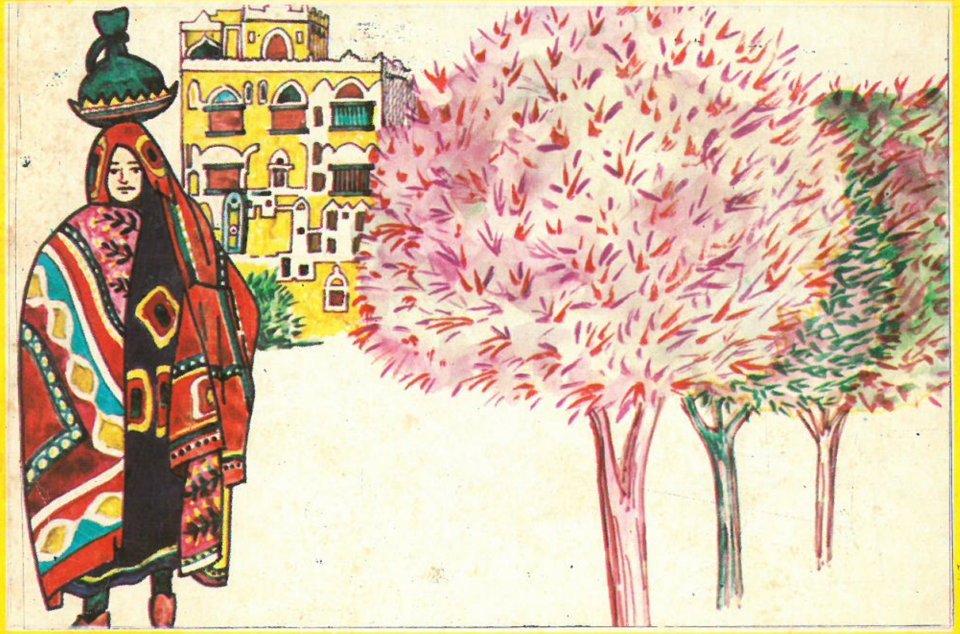

صنعاء

شريف الراس

AJ
915.332
R222s

AJ
915.332
R222s

مركز دراسات الوحدة العربية

ربوع بلادي

سلسلة كتب مصورة لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

٥

B. U. C. LIBRARY
31 JAN
RECEIVED

صنعاء

شريف الراس

رسوم: محمد شريف خالد   خطوط: روضان بهيّه

أنا صَديقُكُم نُعْمانُ مِنْ مَدينةِ صَنْعاءَ عاصِمةِ القُطْرِ اليَمَني . يُسْعِدُني أنْ أحَدِّثَكُم عَنْ مَدينَتي التي إذا نَظَرْتُمْ إلىٰ مَوْقِعِها علىٰ خَريطةِ وَطَنِنا العَرَبي ، وَوَجَدْتُمْ أنّها تَقَعُ في جُنوبِ شِبْهِ الجزيرَةِ العَرَبيّة ، ظَنَنْتُمْ أنّ مَناخَها صَحراوِيٌّ أو حارٌّ . ولكنَّكُم إذا زُرْتُمْ مَدينَتي صَنْعاء فَسَتَجِدونَ أنّ مَناخَها مُعْتَدِلٌ لَطيفٌ في الصَّيفِ ، وبارِدٌ في الشِّتاء . حتىٰ أنَّ النّاسَ يَرْتَدونَ ألْبِسَةً مِنَ الفَرْوِ وَهُمْ يَتَأمَّلونَ ـ مِنْ نَوافِذِ بيوتِهِم العالِيةِ ـ مَنْظَرَ الثَّلجِ المُتَراكِمِ علىٰ قِمّةِ جَبَلِ النّبي شُعَيْب . ذلكَ لأنَّ مُعْظَمَ أراضي اليَمَنِ هِيَ مَناطِقُ جَبَليّةٌ تَرْتَفِعُ القِمَمُ في بَعْضِها إلىٰ حَوالي ٣٤٠٠ مترًا فوقَ سَطْحِ البحرِ . ومَدينَتُنا صَنْعاء ذاتُها مَبْنيّةٌ في مِنطقةٍ سهليةٍ فسيحةٍ تَرتفعُ حوالي ٢٢٥٠ مِترًا عَنْ سَطْحِ البحرِ . والسُّهولُ الخَضْراءُ المحيطةُ بصَنْعاء ، والتي تَكْثُرُ فيها بَساتينُ الفَواكِهِ الشَّهِيّةِ ، تَنْتَهي بمُرتفعاتٍ جَبَليّةٍ ، ووِديانٍ ، مِنْ كُلِّ جانبٍ . بحيثُ أنَّ الأنسانَ كيفَما التفتَ يَرىٰ مَناظِرَ طبيعيةً لا ألْطَفَ منها ولا أجمل .

أخْبَرَني أبي أنَّ صَنعاءَ اليومَ ليسَتْ في اتّساعِ القاهِرةِ أو بغدادَ أوْ دِمَشقَ أو مُدُنِ وَطَنِنا العَرَبي الكبيرةِ الأُخرىٰ . ولكنّها كانَتْ في الماضي مَدينَةً كَبيرةً مُترامِيةَ الأطراف . وأنَّ بُيوتَها بَلَغَتْ مائةَ ألفِ دار . وكانَتْ مَساجِدُها وحَمّاماتُها تُعَدُّ بالمِئات . أمّا اليومَ فَعَدَدُ سُكّانِ صَنْعاء لا يزيدُ عَنْ سَبْعينَ ألفِ نَسَمة بينما عَدَدُ سُكّانِ القُطْرِ اليَمني يَبْلُغُ حوالي ثمانيةِ ملايينَ مُواطنٍ عَرَبي .

وَقَدْ يُدْهِشُكُم حينَ تَصِلونَ إلىٰ صَنعاء أنْ تَجِدوا للمدينةِ سُورًا كبيرًا يُحيطُ بها من كُلِّ جانب . وهو سُورٌ قديمٌ عالٍ يرتفعُ إلى ثمانيةِ أمتارٍ أحيانًا . ولهذا السّورِ بَوّاباتٌ عديدةٌ كانَتْ تُفْتَحُ خِلالَ النهار فيَخرُجُ مِنها أهْلُ صَنْعاء ويعودون ، ثُمَّ تُغْلَقُ مِنْ صَلاةِ العِشاءِ حتىٰ صَلاةِ الفَجْر ، فَيَظَلُّ النّاسُ مَحْجوزينَ داخِلَ سُوْرِ مَدينَتِهِم الكبير . والمسافِرُ الذي يَصِلُ إلىٰ صنعاءَ في الليلِ يَظَلُّ خارِجَ السّورِ حتىٰ الفَجْر .

وَقَدْ ظَلَّتْ هٰذه العادةُ العَجيبةُ مُتَّبَعَةً في صَنْعاءَ ، وفي جميعِ مُدُنِ اليَمَنِ الأخرىٰ ، حتىٰ عام ١٩٦٢ «عِندما استطاعَ شَعْبُنا أنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ نِظامِ حُكْمِ الأمامةِ العَجيب » حَسْبَما أخْبَرَني أبي الذي أوْضَحَ هٰذا الموضوعَ قائِلاً : لَقَدْ ظَلَّتْ اليمنُ ألفَ سَنَةٍ مَعزولةً عَنِ العالَمِ بِسَبَبِ الأُسْرَةِ التي كانَتْ تَتَوَلّىٰ الحُكْمَ بالوِراثَةِ . فكانَ الحاكِمُ الفَرْدُ المستَبِدُّ ، مِثْلَ سابِقيهِ ، يَعْمَلُ علىٰ أنْ تَظَلَّ اليمنُ بلا مَدارِس ، ولا مُستشفيات ، ولا صُحُف ، ولا كُتُب ، ولا طُرُقِ مواصَلات ، ولا سيّارات ، ولا أيّةَ حَرَكةٍ عُمرانية أو مَشاريعَ صِناعيّةٍ أو زِراعيّة . حتىٰ تَخَلَّفَتْ اليمنُ كثيرًا في كُلِّ مَظاهِرِ الحَياة .. لكننا مُنْذُ أنْ تَحَرَّرْنا في عامِ ١٩٦٢ صارَ عِندنا مَدارِسُ كَثيرةٌ للأطفال ، وَصارَ عِندنا في صَنْعاءَ جامِعَةٌ جديدة ، وطُرُقُ مُواصَلاتٍ ، وسيّاراتٌ ، وإذاعةٌ وتلفزيون .. وصارَ النّاسُ يَبْنُونَ بُيوتًا جَديدةً ـ بِحُرِيَّةٍ ـ خارِجَ السُّور .

قُلْتُ لأبي: «إذا كانت هذهِ المنطقةُ مِنْ وَطنِنا العَرَبي قَدْ عاشت ألفَ سنةٍ من التَخَلُّفِ والفَقْرِ والمَرَضِ والجهل. فلماذا يُسَمّيها الناسُ: اليَمَنَ السعيد؟». قال أبي: لأنَّ اليَمَنَ كانت قبلَ ذلك من أجملِ بلادِ الدُّنيا وأرْفَعِها شأناً في الحَضَارةِ. وقَدْ سَمّاها أجْدادُنا العَرَبُ باسمِ «اليمن السَّعيد» لأنَّها كانَتْ مِنْ أكثرِ مَناطِق شِبْهِ الجزيرةِ العربيةِ أمْطاراً وَنَباتاتٍ وخَيْراتٍ زراعية.. ويجبُ عليك يانُعْمانُ أن لاتنسىٰ أنَّهُ من بلادِ اليَمَنِ انْتَشَرَتْ قبائلُ عربيةٌ في مُخْتَلَفِ أنحاءِ الجزيرةِ العربيةِ في قديمِ الزمانِ، أيْ قَبْلَ الأسلامِ. فأسَّسَتْ دُوَلاً ومَمالكَ عظيمةً. منها مَمْلَكَةُ الغَساسِنةِ بالشَّامِ. ودَولةُ المَناذِرَةِ في الحِيْرَةِ بالعِراقِ. وكَانَ مِنْهُمُ الأوْسُ والخَزْرَجُ أنْصارُ النبي.. والجيشُ العَرَبيُّ الضخمُ الذي قادهُ الصَّحابي عَمْرُو بْنُ العاص إلىٰ مِصْرَ كانَ مُعْظَمُهُ يتألَّفُ مِنْ قبائلَ يَمَنيَة. وقد اندَمجَتْ هٰذهِ القَبائلُ في سُكّانِ مِصْرَ بسُرْعةٍ... وعندَما توَجَّهَ أجْدادُنا العَرَبُ إلىٰ الأندلسِ لِيَنشُروا الحضارةَ والعُمرانَ فيها، قبلَ حوالي ١٣٠٠ سنة، كانَ يُرافِقُ جيوشَ الفَتْحِ مُهندسونَ مِعْمارِيُّونَ مِنْ صَنْعاء. مِنْهُمُ المُهندسُ الشهير «حَنَشُ الصَّنْعاني» الذي لايزالُ اسمُهُ مَنقوشاً علىٰ أحْجارِ الجُسُورِ وأقْنِيةِ الرَّيِّ التي بناها في الأندلس.. واليومَ يانُعمانُ نُريد أنْ يستعيدَ اليَمَنُ دَوْرَهُ الحقيقيَّ في الثقافةِ والفنِّ والنهضَةِ الزراعيةِ والصناعيةِ ضمنَ حَرَكَةِ أُمَّتِنا العربيةِ الطامِحَةِ لتحقيقِ وحدتِها. آنذاكَ يُصبِحُ اليمنُ سَعيداً فِعلاً.

سألتُ أُستاذَ اللغةِ العربيةِ في مدرستِنا - وهوَ مِنْ مدينةِ حَماهْ بالقطرِ السوري -: ماهوَ أكثرُ شيءٍ أعْجَبَكَ في صَنْعاء؟.. فقالَ: لُطْفُ أهلِها وعنايتُهم بالأزهار، وجمالُ بيوتِها المُدْهِشة في هندسةِ عُمرانِها وبَساطَةِ زَخارِفِها ورَوْعَةِ طِرازِها العربيِّ البَديع.. كما أعْجَبَني في صَنعاءَ أيضاً كَثْرَةُ المناظرِ الطبيعيةِ الجميلةِ المحيطةِ بها. فأنتَ إذا خَرجتَ إلىٰ المنطقةِ السَّهليةِ الخَضراءِ الفسيحةِ التي تقعُ صنعاءُ في وَسَطِها تتَمنىٰ أنْ تجلسَ في أيِّ مَكانٍ لتَقْضي يَوماً في النُّزْهَةِ والرَّاحةِ. خُصوصاً في البساتينِ الظليلةِ التي تحمِلُ أشجارُها الأنواعَ العديدةَ مِنَ الثِّمارِ والفَواكِهِ الشهيَّة، أو بَيْنَ السَّواقي الرقراقةِ التي تَتَدفَّقُ مياهُها العَذْبةُ مُنْحَدِرَةً مِنَ الجبالِ المحيطةِ بالمنطقةِ. ثمَّ خَبَّرَني أينَ تجدُ مُتَنَزَّهاً طبيعياً أجملَ من قريةِ «حَدَّهْ» الجبليةِ المرتفعةِ التي تُشْرِفُ علىٰ صَنعاء وسُهولِها، والتي تمتازُ بيُنْبُوعِ ماءٍ غزيرٍ يُرْوِي بساتينَها الغنيَّه بأشجارِ الفاكهة والثمارِ المتعَدِّدَة. إنَّ «حَدَّه» في الواقعِ قَريةٌ غايةٌ في اللُّطْفِ والجمالِ. وفيها مُدَرَّجاتٌ جَبَليَّةٌ تَنْحَدِرُ المياهُ من أعلاها في سَواقٍ تَتَغَلْغَلُ سَريعةً بين أشجارِ الجَوْزِ واللَّوزِ وبساتينِ التّينِ والمُشْمُشْ والخَوْخِ والإجاص. وهُنا وهناكَ تَتَناثَرُ البيوتُ الحَجَريةُ ذاتُ النوافذِ البيضاءِ المُشرقة. علىٰ هذهِ المدرَّجاتِ يقضي المتنزِّهونَ أوقاتاً غايةً في السعادة. الكبارُ يَشْوونَ اللحمَ والصِّغارُ يجرونَ ويلعبونَ ويجمعونَ حَبّاتِ اللوزِ الأخضر.

علىٰ أنَّ أجملَ مُتَنَزَّهٍ قُربَ صَنْعَاء هوَ مُتَنَزَّهُ « وادي ظَهْر » الذي نَجِدُ فيه ، بالإضافةِ إلى[1] جَمالِ الطبيعةِ الجَبَليَّةِ السَّاحرةِ والبساتينِ الكثيرة ، أَقْدَمَ ناطِحَةِ سَحَابٍ في العالَمِ . وهي قَصْرٌ يَمَنِيٌّ قديمٌ بناهُ الملكُ « اليَشْرَحْ » قبلَ حوالي أَلفَيْ سَنَة . وَيُسَمّيهِ أهلُ صنعاء دارَ الحَجَرِ أو قَصْرَ غُمْدان .

وهو نَموذَجٌ للقصورِ العظيمةِ التي كانت كثيرةً في اليمنِ القديمةِ . ويُقالُ إنَّهُ كان يتألَّفُ من عِشرينَ طابقاً ، فيها مئاتُ الغُرَفِ . والطابقُ الأخيرُ كانَ من المَرْمَرِ الشَّفَّافِ الذي يُمْكِنُ من خِلالِهِ رؤيةُ الطيورِ في السّماء . وهذا النوعُ من المرمَرِ الشفافِ مُتَوَفِّرٌ عندنا في جبالِ اليمن ، ونُسَمّيهِ « القَمَرِيَّة » لأنَّ ضَوْءَ القَمَرِ يدخلُ مِنْ خلالِهِ إلىٰ غُرَفِ بيوتِنا ..

ودارُ الحَجَرِ هذه أُعجوبةٌ من أعاجيبِ فَنِّ العمارةِ عندنا في اليمنِ . ففي البَدْءِ يُفاجأُ الزائرُ بِضخامةِ الصخرةِ التي بُنِيَ عليها هذا القصر ، وارتفاعِها الشاهقِ ، وَيَتَساءَلُ كيف أمكنَ توحيدُ القصرِ والصخرةِ في كِيانٍ مِعماريٍّ واحدٍ . وحينَ يَصْعَدُ الزائرُ إلىٰ أعلىٰ القصرِ يُذْهَلُ بتلكَ الآفاقِ الشاسِعَةِ المحيطةِ بالقصرِ من سهولٍ ووديانٍ مُشَجَّرَةٍ بأشجارِ الفاكهةِ وجمالٍ طبيعيٍّ يَمْتَدُّ علىٰ مَرْمَىٰ البَصَر .

وقَد حاوَلَ بُناةُ هذا القصرِ أنْ يجعلوا وَسَائلَ العيشِ فيهِ مُتَوَفِّرَةً لاتتأثَّرُ بأيِّ حِصارٍ خارجي . لذلكَ حَفَروا في قلبِ الصخرَةِ بئراً عميقةً تَصِلُ إلىٰ باطنِ الأرض ، لتأمينِ مياهِ الشُّرْب ، كما حَفَروا فيها أيضاً مخازنَ واسعةً للمُؤَنِ والحُبوبِ . وجَعلوا جَوْفَ الصَّخرةِ المَنْفَذَ الوحيدَ إلىٰ القَصْرِ ، وذلكَ بأنْ نَحَتوا فيها من الداخلِ نَفَقاً طويلاً يَنتهي في الأسفلِ ببابٍ من الخَشَبِ السَّميكِ المُصَفَّحِ بالحديدِ . فإذا أُغْلِقَ هذا البابُ تحَوَّلَتْ الصخرةُ والقصرُ معاً إلىٰ قلعةٍ حَصينةٍ .

وتمتازُ اليمنُ عُموماً بعِماراتِها الفريدةِ في نوعِها . ففي صَنعاء ، وفي مُدُنِ اليمن الأُخرىٰ ، نَجِدُ المَساكِنَ البيضاءَ الجميلةَ ذاتَ الأرتفاعِ الشّاهِق . وكلُّ بيتٍ مَبْنِيٌّ بالأَحجارِ إلى ثلاثةِ طوابقٍ أو أربعةٍ ، ثم يُطلىٰ البيتُ جَميعُهُ باللونِ الأَبيضِ . وتكونُ النوافذُ مُحلّاةً بالزَّخارفِ الجُصِّيَّةِ البَديعةِ ومُغَطّاةً بالزُّجاجِ المُلَوَّن ، مما يُعطي هذه المساكنَ من الداخلِ والخارجِ تأثيراً فَنّياً رائعاً ..

وتكونُ غُرْفَةُ الضُّيوفِ عادةً في أعلىٰ المَبْنىٰ . وفيها يقضي أهلُ الدارِ أوقاتَ سَمَرِهِم . وتُسَمّىٰ هذهِ الغُرفَةُ « المَفْرَجَ » او « المَنْظَرَ » لأنَّ الأنسانَ « يَتَفَرَّجُ » مِنها علىٰ المدينةِ وما حَوْلها من مَناظرَ طبيعيةٍ جميلة .

شَكَرْتُ لأُستاذي حديثَهُ المُمتعَ هذا عن مدينتي وتمنيتُ أنْ تُتاحَ لي زيارةُ مدينَتِهِ حَماه لأكْتُبَ عنها وَصْفاً مُماثِلاً .

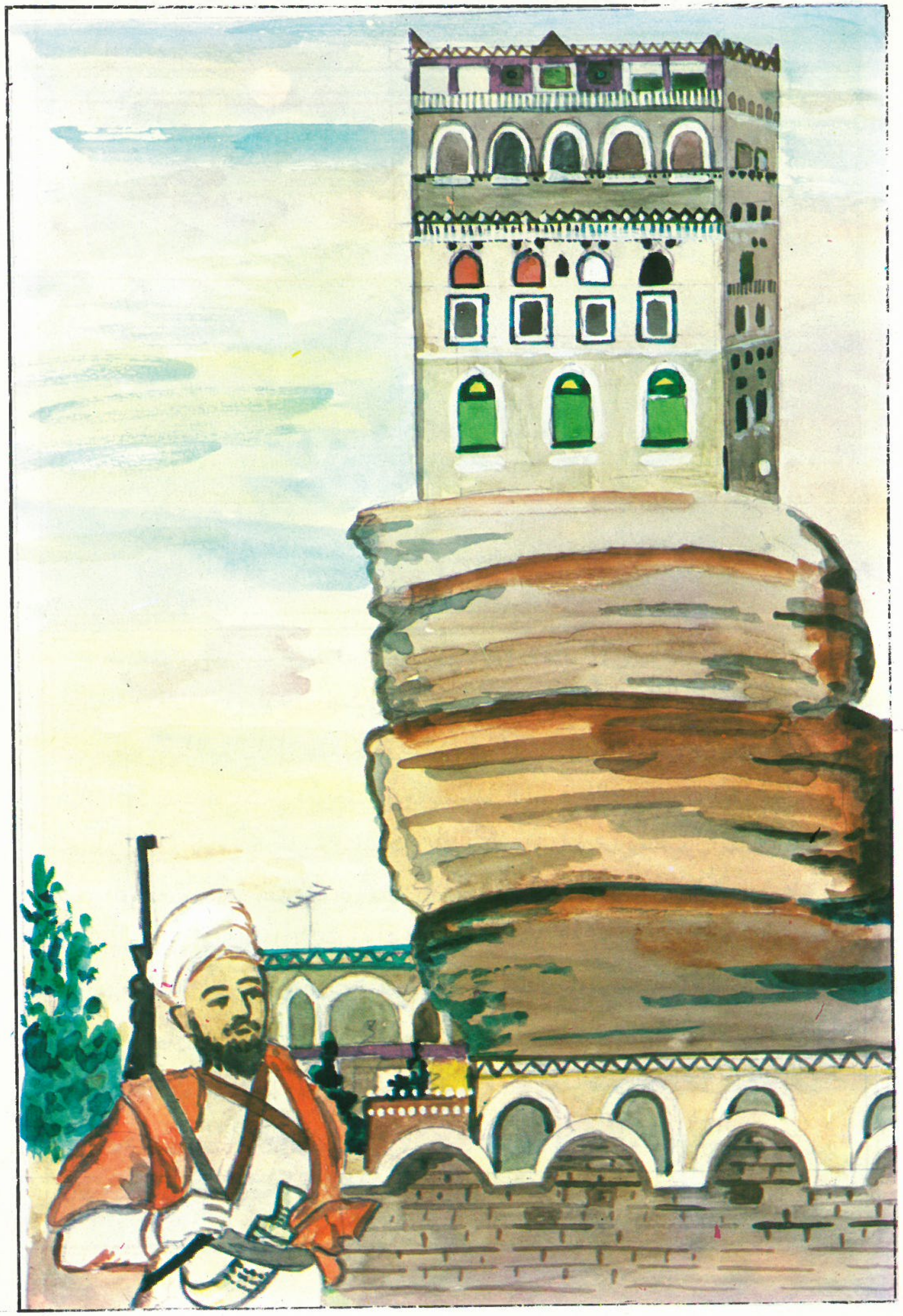

جلَبَ لي أبي كِتاباً عَتيقاً صَدَرَ في دِمَشق عام ١٩٣٦. عُنوانُ الكِتاب: «كيفَ نُحَقِّقُ الوَحْدَةَ العَرَبيَّةَ؟». قالَ أبي: «لَقَدْ لاحظتُ أنكَ مُهتمٌ بهذا الموضوع كثيراً. وهذا الكِتابُ تجِدُ فيهِ أجوبةً عَديدةً على هٰذا السؤال أدْلىٰ بها مُفكّرونَ عَرَبٌ قَبْلَ أكثرَ من أرْبعينَ سَنَةَ».. شَكَرتُ أبي ورُحْتُ أطالِعُ الكتابَ بِشَغَفٍ كَبيرٍ. فَفُوجِئْتُ بأنَّ قائِدَ جيشِ اليَمَنِ في ذلكَ الزَّمن، واسمُهُ أميرُ اللواءِ مُصطفىٰ وَصفي باشا، كانَ من جُملَةِ المُفَكّرينَ الذين كَتبوا إجابةً مُحَدَّدَةً للسؤالِ الهام: «كيفَ نُحَقِّقُ الوَحدَةَ العَربيَّةَ». فَقَدْ قالَ يومَذاك: «لِكَيْ نُحَقِّقَ الوَحْدَةَ التي يَنْشُدُها كُلُّ عربي عَلينا أنْ نقومَ بالخطواتِ التاليةِ: (١) تَوحيدُ برامجِ التعليمِ والثقافةِ في كافَّةِ مَناطِقِ وَطنِنا العَرَبي الواحِد. (٢) إلغاءُ الحَواجزِ الجُمْرُكيةِ وجوازاتِ السَّفَرِ بينَ مناطقِ وطننا. (٣) توحيدُ التشريعِ العامِّ واقتباسُهُ مِنْ عاداتِ شعبِنَا العَرَبي وتُراثِهِ. (٤) رَبْطُ اقتصادات مَناطقِ وطنِنا بشكلٍ يجعلُها متشابهة. (٥) توحيدُ التعليمِ العسكري في الوطنِ العَربي لتكوينِ جيشٍ عَربيٍّ واحدٍ يكون جيشَ الدفاعِ عَنْ أُمّتِنا العربية.

نَسَخْتُ هذا الكلامَ المفيدَ منَ الكِتابِ، ونَشَرْتُهُ في جريدةِ الحائطِ بمَدرسَتِنا، فأعْجَبَ أساتذتي كثيراً. وهَنَّأني عَلَيهِ زُملائي التلاميذُ.

سَألتُ أستاذَ الجغرافيا في مدرستِنا - وَهُوَ مِنْ مَدينةِ طَنْطا بمصر - : «ما الذي لَفَتَ نَظَرَكَ أكثرَ مِنْ سِواهُ في طبيعةِ اليَمَنِ الجغرافيةِ؟». قَالَ: أعْجَبَتْني كثيراً وِدْيانُ اليَمَنِ التي تَنْتَشِرُ بينَ هذه الجِبالِ العاليةِ. فهيَ وديانٌ جميلةٌ، والمناظرُ الطبيعيةُ فيها مُدْهِشَةٌ. وفوقَ هذا فهي وديانٌ خِصْبَةٌ تُزْرَعُ طولَ السنةِ ثلاثَ مَرّاتٍ. والفلاحونَ اليَمَنيونَ النشيطونَ أنشأوا على مُنْحَدَراتِ الوِديانِ مُدَرَّجاتٍ هِيَ جُدْرانٌ مِنَ الصُّخورِ يَمْلأونَ ما خَلفَها بالتُّرابِ فَتُصْبِحَ مَصاطِبَ مُتَدَرِّجَةً صُعوداً فوقَ بَعضِها. فيغرسونَها بالأشجارِ المثمرةِ ويَزرعونَ فيها الحُبوبَ والخُضْرَوات. وَقَدْ أدْهَشَني ما رأيتُهُ ذاتَ مَرَّةٍ في أحَدِ هذهِ الوديانِ. إذ كانَتْ حبَّةُ الطماطة [البندورة] تَزِنُ حوالي نصفَ كيلوغرام، وَحَبَّةُ الباميَاء طولها حوالي ١٥ سنتمراً، وَهيَ غَضّةٌ شَهِيَّة.. على أنَّ كَلِمَةَ [الوادي] هُنا في اليمن تَعْني [النَّهر]. فنَحنُ نَعرفُ أنَّه لا توجد في اليمن أنهارٌ كبقيةِ مَناطق وطننا الأُخرى. وإنَّما مياهُ الأمطارِ الكثيرةِ والثلوجِ القليلةِ التي تَهطِلُ على الجبالِ تَتَجَمَّعُ في الوديانِ على شكلِ سُيولٍ سَريعةٍ مُتَدَفِّقةٍ هيَ كالأنهارِ في غَزارتِها. ومُنذُ القديمِ لم يَتْرُكْ أجدادُنا العَرَبُ وادياً تتدفّقُ فيه السيولُ بينَ جبلينِ إلّا وَبنوا فوقَهُ سَدّاً كبيراً. ومِنْ هٰذهِ السدود: سَدُّ قَصْعان، وشَحْران، وَلَجَّ، وسَحَرْ، وعَبّاد، وسَدُّ مَأرِبْ الذي هُوَ أشْهَرُها جميعاً.

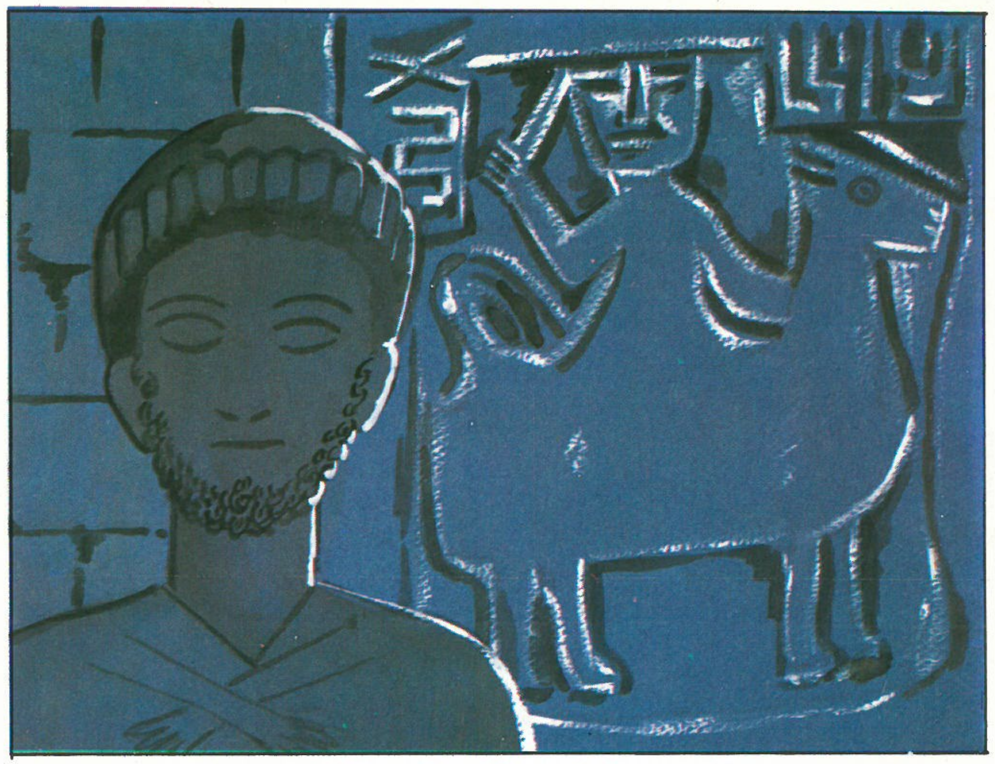

بَنَىٰ أجدادُنا العَرَبُ القُدامىٰ سَدَّ مَأْرِب قَبْلَ حواليْ ٢٦٠٠ سنة بِنَفْسِ الطريقةِ التي بَنَيْنا بها ـ نحنُ أحْفادَهم ـ السدَّ العالي بمصر بعدَ عام ١٩٦٠ . وذلكَ بجَعْلِ جِسْمِ السَّدِ طبقاتٍ مُتراكِمة مِنْ كُتَلِ الصخورِ الضخمةِ والأحجارِ والرِّمالِ والتُّرابِ . فَتَكوَّنُ خلفَهُ بُحَيْرَةُ ماءٍ واسعةٌ تُسْتَخْدَمُ لِرَيِّ الأراضي الزراعية . وكانَ سَدُّ مأرب العظيمُ مَبنياً عِنْدَ نهايةِ وادٍ كبيرٍ بين جَبَلِ بَلَقِ الأيْمن وجَبَلِ بَلَقِ الأيْسر . وَبِفَضْلِ مياهِ هٰذا السَّدِّ ومياهِ سُدود اليَمَنِ القَديمةِ الأخرىٰ ازْدَهَرَتْ الحَضارةُ العربيّةُ في هٰذهِ المنطقة مِنْ وَطَنِنا . لأنَّ الحضارةَ تنشأُ عادةً في المناطقِ الزّراعيةِ الوفيرةِ المياه .. فكَمَا نَشَأَتْ عِندنا علىٰ ضِفافِ نهرِ النّيل الحَضارةُ المصريةُ القديمةُ ، وكَمَا نَشَأَتْ عِندنا علىٰ ضِفافِ دجلةَ والفُرات حَضارةُ وادي الرَّافدين القَديمة ، كذلكَ نَشَأَتْ عِنْدنا في اليَمَنِ القَديمةِ الحَضاراتُ المَعينِيَّةُ وَالسَّبأيّةُ والحِمْيَرِيَّةُ .. وَسَدُّ مَأرِب مشهورٌ جداً لأنَّهُ وَرَدَ ذِكْرُهُ في القُرآنِ الكريمِ ولأنَّهُ عندما تَهَدَّمَ قبلَ ١٤٥٠ سنة هاجَرَتْ قبائلُ عَربيَّةٌ كَثيرةٌ مِنَ اليَمَنِ إلىٰ مَناطِقَ عديدةٍ مِنْ وَطَنِنا الكبير . ولاتَزالُ أطلالُ السَّدِّ مَوْجودةً قُرْبَ مدينةِ مَأرب . وعلىٰ طَرَفَيْ الأطلال نجدُ الآنَ الفتحتينِ الرئيسيتينِ اللتينِ كانَتْ تُوَزَّعُ منها المياهُ على أقنيةِ رَيٍّ مُنَظَّمَة . وبينَ الأطلالِ نجدُ تماثيلَ وَتُحَفاً أثَرِيَّةً نفيسةً تُذَكِّرُ بِتُحَفِ وادي النيل ووادي الرّافِدين .

سألتُ أستاذَ الحِسابِ في مدرسَتِنا ـ وَهُوَ مِنْ مدينةِ الموصِل ـ : ما الذي لَفَتَ نَظَرَكَ أكثَرَ مِنْ سِواهُ في مظاهرِ الحياةِ بِصَنْعاء ؟.. فَقَالَ : هٰذهِ الوُجوهُ العربيةُ الجميلة . وهٰذهِ الأزياءُ الشعبيةُ الرائعةُ البديعةُ التي تَجعلُ شوارعَ صنعاءَ وكأنّها مِنْ عالَمِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ الخياليِّ الساحِرِ. فأنْتَ تَرىٰ الرَّجُلَ المُتَأَنِّقَ في ثِيابِهِ العَرَبيةِ المعروفةِ يرتدي عَمامةً وَيأْتَزِرُ بحِزامٍ عريضٍ مُزَخْرَفٍ، يَشْكُلُ فيهِ الخَنْجَرَ المعقوفَ المُزَيَّنَ بالنّقوشِ الدقيقة. وبعضُهم يَظَلُّ يَحْمِلُ مَعَهُ بُنْدقيتَهُ أينما ذَهَبَ. حتىٰ لكأنَّ البندقيةَ من مُكَمِّلاتِ الزِّيِّ . وَبَعضُهم يَشْكُلُ في حِزامِهِ العريضِ ، مَعَ الخَنْجَرِ البديعِ ، لَوازِمَ الزّينةِ كَموسىٰ الحلاقةِ والمِشْطِ والمِقَصِّ وزُجاجةَ عِطْرٍ أيْضاً .. كما لاحظتُ في مدينةِ تَعِزّ ، التي تُعَدُّ مِنْ مُدُنِ اليَمَنِ الرئيسيةِ بَعْدَ صَنعاء ، أنَّ الرَّجُلَ حينَ يعودُ إلىٰ بيتِهِ من العَمَلِ يشتري باقةَ وردٍ ليُزَيِّنَ بها جَلْسَتَهُ المنزلية .. وهُنا وهناك لاحظتُ أنَّ للثَّوبِ كُمَّيْنِ واسِعَيْنِ جداً . حتىٰ إنَّهم يَعْقِدونَ طَرَفَيْ هٰذينِ الكُمَّيْنِ خَلْفَ الظَهْرِ حَتّىٰ لاتُعيقَ حَرَكَتَهُمْ . وظاهِرَةُ الأكمامِ الوَاسِعَةِ المَعْقودةِ خَلْفَ الظَّهْرِ هٰذه نَجِدُها بِذاتِها عِنْدَنا في أرْيافِ المَوْصِلِ بشمالِ العراق . علىٰ كُلٍّ أنا لا أشْعُرُ بالغُرْبةِ هُنا في صنعاء ، لا لأنَّ بعضَ الأزياءِ الشعبيةِ الجميلةِ هُنا مُشابِهةٌ لِما عِندنا في الموصِلِ ، بَلْ لأنَّنا أُمَّةٌ وَاحِدة . وأنا هُنا أعيشُ بينَ أهْلِي .

وَعندَنا في صَنعاء يَنْدُرُ أنْ نَجِدَ بَيتاً لاتُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ خَضراءُ مَغروسَةٌ بأشجارِ الفاكِهَةِ ونَباتاتِ الزّينَةِ والوُرُود . وفي وَسَطِ الحديقةِ بُرْكَةٌ صَغيرةٌ جَميلةٌ فيها نافورةُ ماءٍ، نُسَمّيها «الشاذِرْوان» وتَصِلُ المِياهُ إلى نافورَةِ الشاذِرْوان بأنابيبَ تَأتي مِنْ يَنابيعِ الجِبالِ القَريبَةِ. ومَعَ ذَلكَ فإنَّ في طَرَفِ كُلِّ حَديقةٍ بِئراً خاصّاً لِكُلِّ بَيْتٍ نَسْتَخرِجُ مياهَهُ بواسِطَةِ دَلْوٍ مَصْنوعٍ مِنْ جِلْدِ الماعِز. حينَ يجلسُ أبي في حَديقةِ بيتِنا، ويتأمّلُ جَمالَ نافورةِ مِياهِ الشاذِرْوان، يَتَغَنّى بقولِ الشاعِرِ :

يا حُسْنَ شاذِروانِ ماءٍ لم يَزَلْ ... يُهْدي جَواهِرَهُ إلى الأضْيافِ
ما أمّهُ الجُلَساءُ يَوْمَ سُرورِهِمْ ... إلّا تَلَقّاهُمْ بقَلْبٍ صافِ

أمّا في فَصْلِ الشّتاءِ البارِدِ، حَيثُ يَرْتَدي الناسُ العَباءاتِ ومَعاطِفَ الفَرْو، فإنَّ أبي يستقبلُ ضُيوفَهُ في غُرْفَةِ المَنْظَرِ أوِ المَفْرَجِ المُخَصَّصَةِ للسهراتِ في الطابقِ الأعلى مِنْ بَيتِنا. وَهيَ غُرفَةٌ مفروشَةٌ بالبُسْطِ والسّجاد وفَرْوِ الأغنام التي تُحيطُ بها الوسائدُ والمسانِدُ مِنْ كُلِّ جانبٍ. وفي السَّهرةِ يَشْرَبُ أبي وضيوفُهُ البُنَّ أيْ القهوةَ . ونحنُ في اليَمنِ لانَستخدم حُبوبَ البُنِّ وإنّما نَغْلي قُشُورَها فقط، ونَضَعُ شرابَ قُشورِ البُنِّ المَغْلِيّ في إبريقٍ مِنَ الفَخّارِ اسمُهُ «جُمْنَة». يَقولون إنَّ مَذاقَ القَهوةِ فيهِ يَصيرُ أطْيب .

وَعلى ذِكْرِ البُنِّ فقد أخبرَنا أُستاذُ العُلومِ - وَهُوَ مِنْ مَدينةِ صَعْدَة بِشمالِ اليَمن - أنَّ شَجَرَةَ البُنِّ تَجُودُ زِراعتُها في جبالِنا على ارتفاعٍ يَتَراوَحُ بينَ ١٠٠٠ و ١٥٠٠ مترٍ عن سطحِ البحرِ. وأنَّ لِلْبُنِّ اليَمنيِّ شُهْرَةً عالميةً في جودةِ نوعيّتِهِ المُمتازة . وأنَّ كَلِمَةَ «موكا» في أوربا تَعني البُنّ المُمتاز، وذلكَ نِسْبَةً إلى مَدينةِ «المُخا» اليَمنيةِ التي كانَ يُصَدَّرُ منها البُنُّ المزروعُ في جِبالِنا.. وأخبرَنا أُستاذُ العُلومِ كذلكَ أن اليمنَ قبلَ أن تَشتهرَ بتصديرِ البُنِّ المُمتازِ كانَتْ مُنْذُ القَديمِ مَشْهورةً بتَصْديرِ السُّيوفِ النَّفيسَةِ والمَصْنوعاتِ المعْدنيّةِ الأُخرى، لأنَّ أرْضَ اليمنِ غَنيّةٌ بالثَّرَواتِ المعْدَنيةِ كَخاماتِ الحَديدِ والذَّهَبِ والنُّحاسِ والكبريتِ والماسِ واليُورانيوم والمنْجنيز والفُوسفات . وقالَ إنّهُ تُوجدُ قُرْبَ ساحِلِ اليَمنِ على البَحْرِ الأحْمرِ مَنطقةٌ تَحتوي كَمّيّةً هائِلةً مِنَ المِلحِ الصّخريِّ النَّقيّ، لَوِ اسْتَخْرَجْنا مِنها في كُلِّ سَنَةٍ مُليونَ طن فإنّنا بحاجةٍ إلى ٢٥٠ سَنَة . لأنَّ الخُبراءَ قَدَّروا ما عِنْدنا مِنْ هذا المِلحِ الجيِّدِ بحوالي ٢٥٠ مُليون طن .. وقالَ : إن هذهِ الثرواتِ الطبيعيةَ الهائلةَ بحاجةٍ إلى تَمْويلٍ مِنَ الرَّساميلِ العَربيّةِ المتوفرةِ في بَعْضِ أقطارِ وَطنِنا الأُخْرى - لاستخراجِها وتَصْنيعِها وتَصْديرِها. وبذلكَ نَسْتَفيد مِنْ هذهِ الثرواتِ الهائلةِ لبِناءِ يَمَنٍ سَعيدٍ مُزْدَهِرٍ وتصبحُ أموالُ وَطَنِنا مفيدة لِكُلِّ اقطارِ وَطَنِنا .

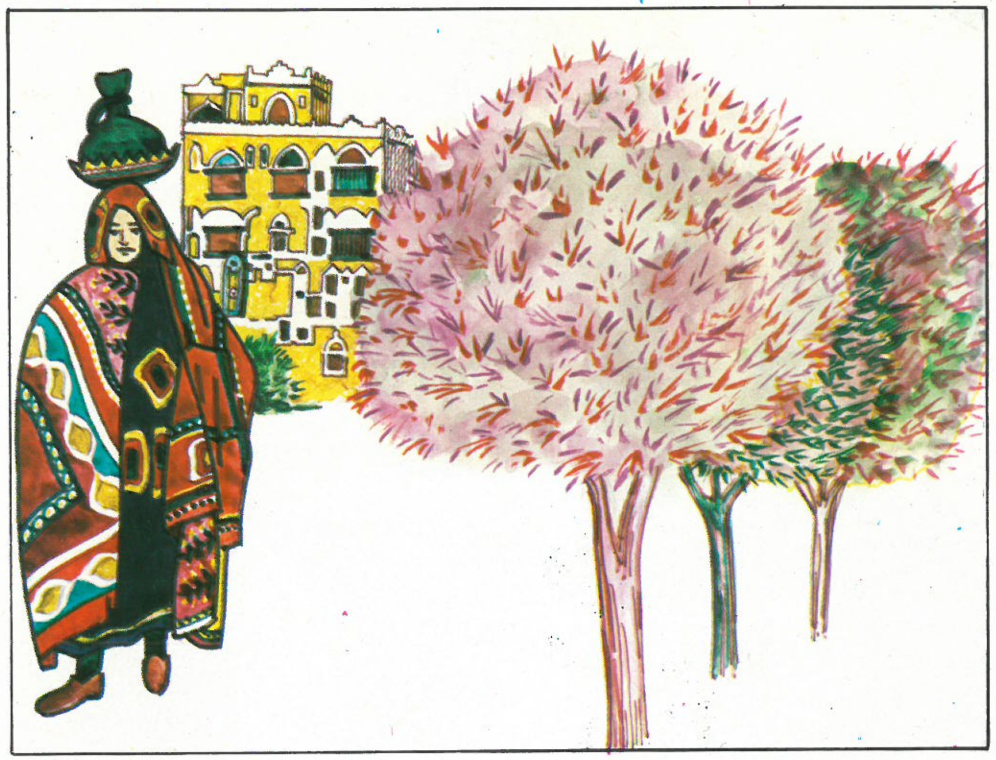

فُوجِئْنا ذَاتَ يَومٍ بأستاذِ الموسيقى في مَدرَسَتِنا - وَهُوَ مِنْ مَدينَةِ مَرَّاكِش في أقْصى مَغْرِبِ وَطَنِنا العَرَبي - يَعْرِضُ علينا صورةً لبيوتِ قَرْيةٍ جَبَلِيَّةٍ ويسألُنا: «احزِروا في أيَّةِ جبالٍ التُقِطَتْ صورةُ هذهِ القَريةِ».. قُلنا: في اليَمَنِ طَبْعاً. صَمَتَ الأُستاذُ وعَرَضَ علَيْنا صورَةً أخرى مُكبَّرةً لبَيتٍ مِنْ تلكَ القَرْيَةِ. فَقُلنا هٰذا بَيتٌ يَمَني. ثُمَّ عَرَضَ علينا صُورةً فيها تَفاصيلُ الزَّخارِفِ التزيينيةِ حولَ نافذةٍ في ذلِكَ البيت. فقُلنا هٰذِهِ زَخارف يَمانية... ابتسمَ أُسْتاذُنا وقالَ: إنَّ الصُّوَرَ التي رأيتموها هِيَ صُوَرٌ مَأخوذةٌ في أعالي جِبالِ الأَطلسِ بِالمغْرِبِ، في منطقةٍ تَسْكُنُها قبيلةٌ من البربرِ.. أليسَ مِنَ المُدْهِشِ حَقّاً أنَّ الأَبنيةَ المُرْتَفِعَةَ هُنا في جِبالِ اليَمَنِ، أيْ في مَشْرِقِ وَطَنِنا العَرَبي، مُشابِهَةٌ تَماماً للأَبنيةِ المرتفعةِ هُناكَ في جِبالِ الأَطلسِ، في مَغْرِبِ وَطَنِنا العَرَبي، بَلْ إنَّها تَتَّسِمُ بنَفْسِ المظاهِرِ المعماريةِ، بكلِّ تَفاصيلِها؟.. ثُمَّ ما رأيكم لَوْ أخْبَرتُكم أنَّ اثنينِ مِنْ عُلَماءِ الموسيقى الأوروبيين سَجَّلا الأَلحانَ الشَعبيةَ هُناكَ في جِبالِ الأَطلسِ ثُمَّ سَجَّلا الأَلحانَ الشعبيةَ هُنا في جبالِ اليَمَنِ فاكتَشَفا أنَّ موسيقانا الشَّعبيةَ هُنا وَهُناك مُتَشابِهَةٌ تَماماً بألحانِها وإيقاعِها وآلاتِ عَزْفِها؟...

كَانَ أُسْتاذُنا يُخْبِرنا بذلكَ وَوَجْهُهُ مُشْرِقٌ بِفَرَحٍ عَظيمٍ.

قَدْ تَسألونني: كَيفَ وُجِدَ في مَدْرَسَتِكَ بِصنعاء، بالأَضافَةِ إلى الأساتذةِ اليمنيين، أساتذةٌ مِنْ حماه وَطنطا والموْصِل ومَراكش؟. فأجيبُكم بأنَّنا عِندَما تحرَّرنا مِنْ كابوس تلكَ الأُسرةِ الحاكِمةِ المسْتَبِدةِ في عام ١٩٦٢ تَوَجَّهنا لافتتاحِ المدارسِ التي كُنّا محرومينَ مِنها. وكُلُّ العَرَبِ فَرِحُوا بذلكَ لأنهم يحبّونَ اليَمن ويقرأونَ في الكُتُبِ القَديمةِ كَيفَ كَانَتْ في القديمِ بَلَدَ العُلومِ والثقافَةِ والأَدَبِ والشِّعْرِ. وكَيفَ كَانَ في كُلِّ بَيْتٍ بِصنعاء مَكْتَبةٌ عامِرةٌ. فأقْبَلوا على التَّطوعِ للتعليمِ في مَدارِسِنا. وأرسلوا لَنا الكُتُبَ المدرسية. قُلتُ لأستاذي الذي من مَدينةِ حَماه: «نحنُ نشكرُكم على ذلكَ» فقالَ: «هٰذا وَاجِبٌ يا نُعمان.. إنَّ مِنْ وَاجبِ كُلِّ عَربي أنْ يَعْمَلَ على تحقيقِ النهضَةِ في أيَّةِ بُقعةٍ مِنْ وَطَنِهِ الكبير» قُلتُ: «لكن ليتَ هٰذِهِ الكتب كانتْ مُوَحَّدةً في المناهِجِ والمُصْطَلحاتِ. فنحنُ في الكُتُبِ السوريةِ نجد اسمَ العُمْلةِ [ليْرَة]، وفي الكتبِ المصريةِ اسمَ العُمْلة [جُنَيْه]، وفي الكتبِ العراقيةِ [دينار].. لماذا لا تتوحَّد العُمْلةُ في جَميعِ أرْجاءِ وَطنِنا؟.. لماذا لا يكونُ للعربِ جَميعاً عُملَةٌ واحدة؟» ابْتَسَمَ أُستاذي وقَالَ: تُعْجِبُني نَباهَتُكَ يا نُعمان.. ونحنُ نَعْتَمِدُ عليكم يا أبناءَ الجيلِ الجديدِ، لا لِتُوَحِّدوا العُمْلَةَ فَحَسْب، بَلْ لِتُوَحِّدوا كُلَّ مظاهِرَ الحياةِ في مُجتمعنا العَرَبي الكبير.. أَلَسْنا جَميعاً أبناءَ الأُمَّةِ العَرَبيَّةِ الواحِدَة؟

قَرأتُ على أُمي مَاكَتَبتُهُ لكم، لأنَّ أمي لاتعرفُ القراءَةَ حيثُ أنَّها نشَأتْ في ذلكَ الزمنِ الذي كُنّا فيهِ محرومينَ مِنَ التَّعليمِ، فقالتْ: نسيتَ أنْ تُحدِّثَ قُرَّاءَكَ عَنِ المرأةِ اليَمنيةِ، وعَنايتِها بجمالِ ونظافةِ بيتِها واهتمامِها بالأسْرَةِ، وتَطَلُّعِها للعلمِ والمعرفةِ. حَدِّثْهُم عنِ العاداتِ والتقاليدِ في الأعيادِ والأعراسِ والأفراحِ والمباركةِ في الولاداتِ، والأزياءِ الشعبيةِ الجميلة.. صحيحٌ أنَّ المرأةَ في صَنعاءَ والمدنِ اليمنيةِ الأخرىٰ تَرْتدي ملاءَةً سوداءَ وتُغَطِّي وَجْهَهَا بحجابٍ مزدوجٍ. ولكنِ الأزياءَ الشعبيةَ التي ترتديها المرأةُ اليمنيةُ هِيَ أزياءٌ جميلةٌ جداً ومتنوعةٌ جداً وخصوصاً ثيابُ المرأةِ الريفيةِ في جبالِنا حيث يُشَبِّهونَها بالغَزالِ سُرعةً ورشاقةً، وهيَ تَقْفِزُ بينَ صخورِ الجبال نازلةً بالمحصولِ الزراعيِّ إلى أسواقِ المدُنِ أوْ راجعةً بالمشترياتِ إلىٰ بيتِها في أعالي الجَبَلِ.. وقَدْ لاتوجدُ امرأةٌ يمنيةٌ إلّاَ وتُزيِّنُ صَدْرَها بعقْدٍ ضَخْمٍ مِنَ الكَهْرَمانِ الأصفرِ الجميل. وغالباً ماتُضافُ إلى عُقودِ الكَهْرَمانِ العديدةِ عُقودُ من النُّقودِ الفضيةِ والذهبيةِ وأشكالِ الحُليِّ الأخرىٰ.

قُلتُ لَهَا: ليتَكِ أَخْبَرتِني بذلكَ مُنذُ البداية.. أَمّا الآنَ فَمَا حيلتي وقد انتهىٰ المجالُ المخصَّصُ لكتابي هٰذا عَنْ صَنعَاء؟!

صديقُكُم: نُعمان مِنْ صَنعاء

مركز دراسات الوحدة العربية

ص. ب : ٦٠٠١ ـ ١١٣
تلفون : ٣٤٥٣٨٣ ـ ٣٤٦٨٠٢
برقيا : مرعربي
بناية « سادات تاور »
شارع ليون ـ بيروت/ لبنان

حقوق النشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى ـ بيروت ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠

الثمن : ٣ ل . ل .
اوما يعادلها